# القـرآن والبحـــر

إن لله تبارك وتعالى كتابين : الأول منهما مخلوق مبسوط أمام الأنظار وهو الكون ، والآخر منهما مُنَزَّل من لدنه سبحانه وهو القرآن ، ونستطيع أن نقول : إن لله جل جلاله قرآنين ، القرآن الأول مشاهد منظور ، وهو ملكوت السموات والأرض ، والقرآن الثانى مقروء مسطور ، وهو كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ؛ والكتاب الأول وهو الكون يعاون – بتأمله والتدبر فى مشاهده – على فهم ما نستطيع من معانى الكتاب الآخر وهو القرآن ، وبذلك تكون مشاهد الكون وسائل إيضاح أمامنا ، تقودنا إلى عمق الصلة بهذا الهدى الإلهى الباقى الذى جعله الله « روحاً » للإنسانية على مدى مسيرتها الموصولة ؛ ولعل هذا هو بعض ما نفهم من قول الله عز شأنه : « وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ ، وَلَـٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، صِرَاطِ اللهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ، أَلاَ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ » ( الشورى ٥٢ ، ٥٣ )

ولا شك أن « البحر » بمفهومه العام الواسع مشهد جليل من مشاهد

الكون ، ومظهر كبير من مظاهر الطبيعة ، فالتأمل فيه جزء من المطالعة فى كتاب الله الكونى الواسع ، والمطالعة فى القرآن الكريم تفرض علينا حديثاً فسيحًا عن « البحر » ، فتصلنا به ، وتدفعنا إلى التدبر لشأنه .

وقد يحسن قبل أن نمضى فى حديث القرآن عن البحر - أن نعرف المراد بكلمة « البحر » فى اللغة والاصطلاح ، فكلمة « البحر » فى الأصل يراد بها كل مكان واسع جامع للماء الكبير ، ويسمى العربُ كلَّ متوسع فى شىء : بحراً . حتى قالوا عن الحصان الواسع الجرى : حصان بحر . وقال الرسول صلى الله عليه وسلم عن فرس سريع رَكِبه : « وجدته بحراً » . وقالوا عن الرجل الفقيه الواسع العلم : عالم بحر .

وقال بعض العلماء : البحر يقال - فى الأصل - للماء الملح دون العذب ، وقال آخرون : بل يطلق على كل منهما ، واستدلوا على ذلك بقول الله تعالى : « وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ، هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ، وَهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ » ( الفرقان ٥٣ ) ، أى هذا بحر عذب وصح العذوبة . وهذا بحر ملح شديد الملوحة . والظاهر أن البحر : هو الماء الكثير ، ملحاً كان أو عذباً ، ولكن غلب استعماله فى الملح ، وقل استعماله فى العذب .

والبحر - جغرافيًا - هو جزء من محيط ، يكون مسطحاً مائيًا واسعاً يتصل بهذا المحيط ، كالبحر المتوسط ، والبحر الأحمر ، والبحر الأسود ، وبحر الشمال ...

ومن كلمة « البحر » استق العرب كلمة « البحرية » ، وهى كلمة كانت تطلق على جميع السفن التى تمتلكها الدولة لغرض الحرب أو التجارة ، وتطلق الآن على السفن المخصصة للقتال أو حماية الدول .

* * *

ونعود إلى حديث القرآن عن البحر ، فقد ورد ذكر « البحر » فى عشرات من مواطن الكتاب الإلهى المجيد ، وقد تحدث هذا الكتاب الربانى عن البحر حديثاً عجباً ، فيه إثارة للعقل ، وإيقاظ للقلب ، وعبرة للنفس ، وإيراد الدقائق من العلم المتعلق بالكون والسنن الطبيعية ، وما أودع الله فى ملكوته من عجائب وأسرار .

ولقد روى « تفسير المنار(١) » أنه حدث فى أوائل القرن العشرين أن ترجمةً إنجليزية للقرآن الكريم وقعت فى يد ربان إنجليزى يقود إحدى البواخر الكبيرة ، فقرأ فى الترجمة آيتين فى سورة يونس عن البحر تقولان :

( هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِى الْفُلْكِ ، وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا ، جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ، دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » . ( الآيتان ٢٢ ، ٢٣ ) .

فأحس الربان بالروعة من بلاغة هذا الوصف القرآنى الدقيق لطغيان البحر واصطخابه ، وما تفعله الرياح الموسمية العاتية بالبواخر والموارج العظمى فى المحيط الهندى فى فصل الصيف ، فأخذ يتتبع كل الآيات القرآنية التى تتحدث عن البحر ، ثم سأل بعض المسلمين : هل ركب نبيكم محمد البحر وسافر فيه ؟ فقالوا له : إنه لم يرد عنه أنه سافر فى البحر قط .

وهنا اعتقد ذلك الربان أن ما فى القرآن من حديث وعلم لم يكن إلا بوحى من الله تعالى إلى هذا النبى العظيم !

---

(١) تفسير المنار ، ج ١١ ص ٣٤١

* * *

ولعل أول ما ينبغى أن نستذكره من الحديث القرآنى عن البحر أنه يشير إلى احتواء البحر فى ظاهره وباطنه كثيراً من الأشياء ، ولذلك يجعله عديلاً للبر ، فيقول فى سورة الأنعام : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » ( الأنعام ٥٩ ) . قال أهل التفسير : وإنما ذكر الله علمه بما فى البحر ، لأن البحر يحوى أشياء غريبة وعجيبة ، عرف الإنسان منها جوانب ، وبقيت منها جوانب ما زالت من الغيب يعلمها الله .

وعدَّ القرآن ركوبَ الإنسان البحر ، وسيطرته على بعض قواه ، لوناً من ألوان التكريم الإلهى للإنسان ، فقال فى سورة الإسراء : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ ، وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا » ( الآية ٧٠ ) . ويذكرنا القرآن بهذه النعمة ، لنقدرها ونشكرها ونعتبرها فقال : « هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » .

وكأنَّ كتاب الله قد أراد أن يشير أمامنا إشارات موجزةً معجزة إلى أنواع هذه النعمة ، فقال فى سورة إبراهيم : « وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ » ( الآية ٣٢ ) . وقال فى سورة الإسراء : « رَبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى لَكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً » ( الآية ٦٦ ) . وقال فى سورة لقمان : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ، إِنَّ ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » ( الآية ٣١ ) .

وحينما قال فى سورة البقرة : « وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ » ( الآية ١٦٤ ) . كأنه أراد – وهو أعلم بمراده - التذكير بالسفن التى تسير مسرعة بقوة الهواء أو البخار أو غيره ، لتحقيق ألوان من المنافع للناس فى أسفارهم وتجاراتهم ، وقد صارت البواخر من الضخامة بحيث تعد

الباخرة الضخمة كأنها مدينة تتحرك فوق سطح البحر ، ففيها جميع المرافق التى تتمتع بها الناس ، من غرف وسرر وأرائك وحمامات وملاعب وسيما ومسارح ومطابع ، وغير ذلك .

والله جل جلاله هو الذى خلق النواميس التى تسمح بجريان السفن فى البحر ، وعلم الله الإنسان كيف يهتدى إلى هذه النواميس ليسخرها لمصلحته ، وينتفع بها هذا الانتفاع الضخم . ولو اختلفت طبيعة البحار أو طبيعة السفن ، أو اختلفت مدارك الإنسان ، ما كان شيء من هذا الذى كان ، ولا شك أن هذا النظام البديع من فضل الله ورحمته ولطفه بعباده ، فلا غرابة إذن حين يقول فى سورة الحج : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الأَرْضِ والْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، ويُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ على الأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ » ( الآية ٦٥ ) .

وما دام الأمر كذلك فمن حق القرآن أن يتخذ من ذلك الإبداع الربانى دليلا على وجود الله وربوبيته وألوهيته وعظمته ، وإذا كان القرآن قد حدثنا فى سورة البقرة عن آيات الله فى السموات والأرض ومنها « الْفُلْكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ » فقد قال قبلها مباشرة : « وإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ وكأن هذا حكم ومعه البرهان والدليل ، فالبحر بما فيه من نعم دليل ناطق وشاهد صادق على ألوهية الله ورحمته الواسعة .

والإمام المفسر فخر الدين الرازى المتوفى سنة ست وستمائة للهجرة ، أى منذ قرابة ثمانمائة سنة يتحدث عن الاستدلال على وجود الله تعالى عن طريق جريان السفن فى البحار ، فيقول :

« المسألة الرابعة : فى كيفية الاستدلال بجريان الفلك فى البحر على

وجود الصانع تعالى وتقدّس ، وهى من وجوه .

أحدها : أن السفن وإن كانت من تركيب الناس ، إلا أنه تعالى هو الذى خلق الآلات التى بها يمكن تركيب هذه السفن ، فلولا خلقه لها لما أمكن ذلك .

وثانيها : لولا الرياح المعينة على تحريكها لما تكامل النفع بها .

وثالثها : لولا هذه الرياح وعدم عصفها لما بقيت ولما سلمت .

ورابعها : لولا تقوية قلوب من يركب هذه السفن لما تم الغرض ، فصيرها الله تعالى من هذه الوجوه مصلحة للعباد ، وطريقاً لمنافعهم وتجاراتهم .

وخامسها : أنه خص كل طرف من أطراف العالم بشىء معين ، وأحوج الكلَّ إلى الكل ، فصار ذلك داعياً يدعوهم إلى اقتحام هذه الأخطار فى هذه الأسفار ، ولولا أنه تعالى خص كل طرف بشىء وأحوج الكل إليه ، لما ركبوا هذه السفن ، فالحامل ينتفع به لأنه يربح ، والمحمول إليه ينتفع بما حُمل إليه .

وسادسها : تسخير الله البحر لحمل الفلك ، مع قوة سلطان البحر إذا هاج ، وعظم الهول فيه ، إذا أرسل الله الرياح فاضطربت أمواجه ، وتقلبت مياهه .

وسابعها : أن الأودية العظام مثل جيحون وسيحون تنصب أبداً إلى بحيرة خوارزم على صغرها ، ثم إن بحيرة خوارزم لا تزداد البتة ولا تمتد ، فالحق سبحانه وتعالى هو العالم بكيفية حال هذه المياه العظيمة التى تنصب فيها .

وثامنها : ما فى البحار من الحيوانات العظيمة ، ثم إن الله تعالى يخلص السفن منها ، ويوصلها إلى سواحل السلامة .

وتاسعها : ما فى البحار من هذا الأمر العجيب ، وهو قوله تعالى :

( مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ) وقال : ( هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ ، وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ) . ثم إنه تعالى بقدرته يحفظ البعض عن الاختلاط بالبعض ، وكل ذلك مما يرشد العقول والألباب إلى افتقارها إلى مدبر يدبرها ومقدِّر يحفظها » .

ولتتذكر أن هذا كلام قد قاله الرازى منذ قرابة ثمانمائة سنة :

* * *

ولم يستقص القرآن ألوان المنافع والخيرات المستمدة من البحر ، لأنه كتاب إيجاز ، ومع ذلك أشار إلى الأسماك واللحوم البحرية وما يستخرج من البحر من جواهر ، فقال فى سورة النحل : « وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا ، وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ، وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » ( الآية ١٤ ) . وقال فى سورة المائدة : « أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ . . . » ( الآية ٩٦ ) .

وليس صيد البحر مقصوراً على الأسماك التى تبلغ عشرات من الأنواع ، ولكن هناك أيضاً النباتات البحرية ، وما أكثرها ، وفى مطلع هذا القرن العشرين قام رئيس « مجمع تقدم العلم الإنجليزى » بإحصاء بين فيه أن الأرض لا تبلغ سنة ١٩٢٨ م حتى تقل المواد الغذائية البرية لكثرة التناسل بين البشر ، وذكر أن فى قاع البحار وعلى شواطئها وسواحلها أصنافاً من النباتات البحرية لا تقل القيمة الغذائية فيها عما فى أفضل النباتات البرية ، وذكر أسماء عدة أصناف منها تكثر فى المحيط الأطلانطيق عند شواطئه الغربية ، وقال إن فى سواحل مقاطعة سرقوسة وحدها من النباتات البحرية ما لو أحسن استخراجُه ومعالجته لكفى لتغذية سكان أوربا كلها طول السنة ، ولكنها متروكة للطبيعة ، فكيف لو أحصينا ما فى البحار الأخرى ، ذاكرين أن مساحة

هذه البحار أكثر من ضعفى مساحة اليابس ؟ . ويراجع تفصيل الحديث عن ذلك فى كتابى « صلوات على الشاطئ » ومجلة الهلال فى أكتوبر ١٩٤٨ م .

وليس الاعتذاء بالأعشاب البحرية بدعاً عند الناس ، فبعض الأمم تغتذى بها كما فى اليابان والصين وجزائر المحيط ، وقد مرت عليهم دهور ولا غذاء لهم سواها ، وفى النباتات البحرية ما فى النباتات البرية من مواد الغذاء اللازمة للجسم ، فلم لا يلتفت العالم إليها للانتفاع بها ؟

* * *

وإذا كانت البحار بسعتها وخيراتها ووسائل الانتفاع بها تعد مظهراً رائعاً من مظاهر قدرة الله جل جلاله ، فإن القرآن الكريم قد جعلها من جانب آخر محكًّا ومختبراً للإيمان عند الإنسان ، فهذا البحر الهادئ اللين الحلو الجميل ، الذى يلجأ إليه الناس متمتعين بالسباحة فيه ، وشم هوائه ، والارتياح إلى جوه وسمائه وزرقة مائه ، هو هو البحر المخيف المرعب المزمجر أحياناً . ليكون اختباراً وابتلاء ، وتذكيراً بأن المنقذ هو الله ، وأن المنعم على من يستحق النعمة ، هو المنتقم ممن يستحق الانتقام .

ونحن قد قرأنا قول الله تعالى فى سورة يونس : « هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ، وَفَرِحُوا بِهَا ، جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ، دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ، فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » ( الآيتان ٢٢ ، ٢٣ ) .

وفى سورة لقمان جاء قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ

بنعمة اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِه ، إنَّ فى ذَلِكَ لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ، وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إلى البَرِّ فمِنهُمْ مُقْتَصِدٌ ، وَمَا يَجْحَدُ بآياتِنا إلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ » ( الآيتان ٣١ ، ٣٢ ) .

وفى سورة الشورى جاء قوله عز من قائل : « وَمِنْ آياتِهِ الجَوارِ فى البَحْرِ كالأعْلامِ ، إنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ، إنَّ فى ذلِكَ لآياتٍ لِكلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ، أو يُوبِقْهُنَّ بما كَسَبُوا ويَعْفُ عن كثير » ( الآيات ٣٢ – ٣٤ ) .

والبحر الذى يُضرب مثلاً للصفاء والنقاء وطيب الهواء فى كثير من الأحيان ، هو نفسه البحر الذى يكمهر فيكون فيه ظلام وظلمات ، وأهوال من اللجج الثائرة والأمواج الهائجة . ولذلك حدثنا القرآن ، فقال فى سورة الأنعام . « قلْ مَنْ يُنَجِّيكُم مِنْ ظُلماتِ البَرِّ والبَحْرِ ، تدْعُونَه تَضرُّعاً وخُفْيَةً ، لئِنْ أنْجانا مِنْ هذِهِ لنكُونَنَّ من الشَّاكِرين ، قلِ اللهُ يُنجِّيكُمْ منْها ومِنْ كلِّ كَرْبٍ ثمَّ أنْتُم تُشْرِكُونَ » ( الآيتان ٦٣ ، ٦٤ ) .

ويقول فى سورة النور : « أوْ كَظُلماتٍ فى بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فوقِهِ مَوْجٌ ، من فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلماتٌ بعْضُها فَوْق بعضٍ ، إذا أخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاها ، ومَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لهُ نوراً فما لَهُ منْ نورٍ » ( الآية ٤٠ ) .

ويقول فى سورة النمل : « أمْ منْ يَهْدِيكُمْ فى ظُلماتِ البَرِّ والبَحْرِ ومنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ أإلهٌ معَ اللهِ ؟ تَعالى اللهُ عمَّا يُشْرِكُون » ( الآية ٦٣ ) .

والبحر الذى يلطف عنده الحر ، ويرق على شاطئه النسيم ، ويتخذه الناس مصيفاً للترويح عن النفوس ، واستعادة النشاط ، وتقوية الصحة وتجديد حركة ، هو نفسه الذى يطوى بين أحشائه الواسعة الكثير من الغرقى

والضحايا ، ولم يفت القرآن المجيد أن يشير إلى ذلك ، فحدثنا عن إغراقه فرعون وقومه الكافرين فى البحر ، فقال فى سورة البقرة : « وإذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البَحْرَ فأنْجَيْنَاكُمْ وأَغْرَقْنَا آلَ فِرعَوْنَ وأنْتُمْ تَنْظُرونَ » ( الآية ٥٠ ) .

والبحر الذى أغرق فرعون وقومه بقدرة الله ، هو هو البحر الذى صان الرضيع « موسى » نبى الله بإذن الله ، ألم يقل القرآن فى سورة القصص : « وأَوْحَيْنَا إلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فإذا خِفْتِ عليْهِ فألْقِيه فى اليمِّ ولا تخافِى ولا تَحْزَنِى ، إنَّا رادُّوهُ إلَيْكِ وجاعِلُوهُ مِنَ المرْسَلِينَ » ( الآية ٧ ) . ثم يقول : « فَرَدَدْنَاهُ إلَى أُمِّهِ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُها ولا تَحْزَنَ ، ولتعْلَمَ أنَّ وعْدَ اللهِ حقٌّ ، ولكنَّ أكثَرَهُمْ لا يعْلَمُونَ » ( الآية ١٣ ) .

* * *

والقرآن الكريم - عن طريق حديثه عن البحر - يحثنا على الدراسات الفلكية وبحوث الفضاء والسماء ، ويشير إلى التوسع فى هذه الدراسات ، حيث يقول فى سورة الأنعام : « هُوَ الَّذِى جعل لَكُمُ النُّجومَ لتهْتَدُوا بها فى ظُلُماتِ البَرِّ والبَحْرِ ، قد فصَّلْنا الآياتِ لقَوْمٍ يَعْلَمونَ » ( الآية ٩٧ ) . وما أدق الرمز والإشارة هنا حين يذكر التفصيل : « قد فصلنا » ، وحين يذكر العلم : « لقوم يعلمون » .

وقد يؤكد هذا الفهم أن القرآن المجيد ضرب « البحر » مثلا فى السعة والكثرة ، فقال فى سورة الكهف : « قُلْ لوْ كانَ البَحْرُ مِداداً لِكلماتِ رَبِّى لَنَفِدَ البَحْرُ قبلَ أنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّى ، ولوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً » ( الآية ١٠٩ ) .

وكأن القرآن المجيد يريد - عن طريق حديثه عن البحر - أن نتعلم التمييز بين الحلو والمر ، أو بين العذب والملح ، وأن نتعود الفصل بين الأشياء

المتغايرة ، وأن نستعمل كل شيء فى مكانه ووظيفته ، دون أن يطغى جانب على جانب ، ولذلك يقول فى سورة الفرقان : « وهُوَ الَّذِى مَرَجَ البَحْرَيْنِ هـذا عَذْبٌ فراتٌ وهـٰذا مِلْحٌ أُجاجٌ ، وجَعَلَ بَيْنَهما بَرْزَخاً وحِجْراً مَحْجُوراً » ( الآية ٥٣ ) . أى هيأ الله جل جلاله البحر المالح الشديد الملوحة وأجراه ، كما هيأ النهر العذب الظاهر العذوبة وأجراه ، وجعلهما يتدانيان ويلتقيان ، دون أن يغلب أحدهما الآخر ، أو دون أن يفنى أحدهما فى الآخر ، بل أقام بينهما من طبيعتهما التى فطرهما الله عليها ، حاجزاً يمنع كلا منهما أن يطغى علَى الآخر ، فالأنهار تجرى – غالباً – فى مستوى أعلى من مستوى البحار ، ولذلك يصب الماء العذب فى ماء البحر الملح ، ولا يقع العكس إلا نادراً . وعاد القرآن فأكد هذه الصور من مظاهر قدرة الله ، فقال فى سورة الرحمن : « مَرَجَ البَحْرَيْنِ يلْتَقِيَانِ ، بَيْنَهما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ ، فبِأَىِّ آلاءِ ربِّكُما تكذِّبانِ » ( الآيات من ١٩ ٢١ ) .

وكما تلتقى البحار والأنهار ، فلا يبغى أحدها على الآخر ، لأن الله « جعل بين الاثنين حاجزاً » نرى البحرين يلتقيان أيضاً . فلا يطغى أحدهما ولا يبغى على الآخر ، وقد حدثنا القرآن عن « مجمع البحرين » . ويراد بمجمع البحرين منطقة التقاء بحر الروم وبحر القلزم ، وهما البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر . يقول القرآن فى سورة الكهف : « وإذْ قالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أبْرحُ حتَّى أبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ أوْ أمْضِىَ حُقُباً ، فلمَّا بَلَغا مجْمَعَ بَيْنِهما نَسِيا حُوتَهُمَا فاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى البَحْرِ سَرَباً » . ( الآيتان ٦٠ ، ٦١ ) .

* * *

وكأن الله جل جلاله قد جعل مساحة البحار – بالمعنى العام الذى يشمل

المحيطات والبحيرات ونحوها – أوسع من مساحة اليابسة ، وأوسع وأوسع من مساحة المعمور من هذه اليابسة ، لكى يكون فى البحار متسع يخفف حدة الطمع عند الإنسان الذى يتصارع أبناؤه أشَدَّ الصراع على خيرات الأرض وطاقاتها ، ولذلك يحس الإنسان العادى حين ينزل البحر سابحاً ، أو يجلس إليه مستروحاً ، أن مساحة البحر أقرب إلى روح المساواة من مساحة الأرض ، وتعجبنى هنا عبارة للمرحوم الرافعى يخاطب بها البحر حول ما يقرب من هذا المعنى فيقول له :

« أيها البحر ، قد ملأتك قوة الله لتثبت فراغ الأرض لأهل الأرض . ليس فيك ممالك ولا حدود ، وليس عليك سلطان لهذا الإنسان المغرور ؛ وتجيش بالناس وبالسفن العظيمة ، كأنك تحمل من هؤلاء وهؤلاء قشًّا ترمى به .

والاختراع الإنسانى – مهما عظم – لا يغنى الإنسانَ فيك عن إيمانه ، وأنت تملأ ثلاثة أرباع الأرض بالعظمة والهول ، ردًّا على عظمة الإنسان وهوله فى الربع الباقى . ما أعظم الإنسان وأصغره !

ينزل الناس فى مائك فيتساوَوْن حتى لا يختلف ظاهر عن ظاهر ، ويركبون ظهرك فى السفن ، فيحن بعضهم إلى بعض ، حتى لا يختلف باطن عن باطن . تشعرهم جميعاً أنهم خرجوا من الكرة الأرضية ومن أحكامها الباطلة ، وتفقرهم إلى الحب والصداقة فقراً يريهم النجوم نفسها كأنها أصدقاء إذ عرفوها فى الأرض .

يا سحر الخوف ، أنت أنت فى اللجة كما أنت أنت فى جهنم !

وإذا ركبك الملحد أيها البحر ، فرجفت من تحته ، وهدرت عليه ، وثرت به ، وأريته رأى العين كأنه بين سماءين ستنطبق إحداهما على الأخرى

فتقفلان عليه ، تركته يتطأطأ ويتواضع ، كأنك تهزه وتهز أفكاره معاً ، وتدحرجه وتدحرجها ، وأطرت كلَّ ما فى عقله فيلجأ إلى الله بعقل طفل ، وكشفت له عن الحقيقة : أن نسيان الله ليس عمل العقل ، ولكنه عمل الغفلة والأمن وطول السلامة » .

* * *

والعقل البشرى عقل طُبعة وثاب ، ولذلك لا يبعد فى مجال كمجالنا هذا أن يسأل سائل فيقول : ولماذا خلق الله البحر ؟ . ومن العجيب أنى أكتب هذا الفصل فى يوم من صيف عام ١٩٧٢ ، وفى صيف عام ١٩٤٦ م أى منذ قرابة ربع قرن - نشرت كتابى « صلوات على الشاطئ » . وجعلت فيه فصلا عنوانه : « لماذا خلق الله البحر » استغرق أكثر من عشر صفحات ، ولا أحب أن أعيد هنا كلاماً قلته ونشرته فى ذلك العهد البعيد ، ولكنى أكتفى هنا بإيراد ما قاله الإمام ابن القيم فى كتابه « زاد المعاد » إجابة عن هذا السؤال . قال : « وقد جعل الله البحر ملحاً أجاجاً ، مُرًّا زعاقاً ، لتمام مصالح مَنْ هو على وجه الأرض من الآدميين والبهائم ، فإنه دائم راكد كثير الحيوان ، وهو يموت فيه كثيراً ولا يُقبر ، فلو كان حلواً لأنتن من إقامته وموت حيوانه فيه وأجاف ، وكان الهواء المحيط بالعالم يكتسب منه ذلك وينتن ويجيف فيفسد العالم .

فاقتضت حكمة الرب سبحانه وتعالى أن جعله كالملاَّحة التى لو ألقى فيها جيف العالم كلها وأنتانه وأمواته لم تغيره شيئاً ، ولا يتغير على مكثه من حين خُلق ، وإلى أن يطوى الله العالم . فهذا هو السبب الغائى الموجب لملوحته ، وأما الفاعلىُّ فكون أرضه سبخة مالحة » .

ولكن ... إذا كانت منافع البحر كثيرة وخيراته لا تحصى ، فهل استقام الإنسان فى الانتفاع بهذه المنافع والخيرات ؟ وهل تعامل مع البحر معاملة القويم الأمين ؟ . الواقع ينادى بخلاف ذلك ، فالإنسان المعاصر قد امتد بتنافسه وصراعه إلى البحار وشواطئها ، وتبارت الدول والأمم فى السيطرة على البحار وحشدها بآلات القتال والدمار ، من مدمرات ونسافات وبوارج وحوامل طائرات ... إلخ

ولم يقتصر الأمر فى التنكر لمنافع البحر وخيراته على هذا اللون من الانحراف أو الاعتساف ، بل كان هناك انحراف آخر فى الانتفاع بالبحر ، وهذا الانحراف يتمثل من كثير من الناس فى ذلك الفجور الذى يأتونه على شواطئ البحار ، دون تقيد بقيود للفضيلة أو العفة أو الوقار .

ومن أعنف ما قرأت فى تصوير هذا الفجور عبارة أجراها الرافعى على لسان الشيطان ، وهو يصور ما يجرى فى أحد الشواطئ ، وكان ذلك فى الثلاثينيات من هذا القرن . يقول :

« هنا على رغم الآداب مملكة للصيف والقيظ ، سلطانها الجسم المؤنث العارى ، أجسامٌ تعرض مفاتنها عرض البضائع ، فالشاطئ حانوت للزواج . وأجسام تعرض أوضاعها كأنها فى غرفة نومها لا فى الشاطئ ، وأجسام جالسة لغيرها ، تحيط بها معانيها ملتمسة معانيه ، فالشاطئ سوق للرقيق ، وأجسام خفرة جالسة للشمس والهواء ، فالشاطئ كدار الكفر لمن أكره ، وأجسام عليلة تقتحمها الأعين فتزدريها ، لأنها جعلت الشاطئ مستشفى ، وأجسام خليعة ، أضافت من « استانلى » وأخواتها – إلى منارة الإسكندرية ومكتبة الإسكندرية – مزبلة الإسكندرية .

كان جدال المسلمين فى السفور ، فأصبح الآن فى العُرْى ، فإذا تطور

فماذا بقى من جدال أوربا ، إلا الجدال فى شرعية جمع المرأة بين الزوج وشبه الزوج » !

كان ذلك الكلام فى الثلاثينيات ، فماذا يقول صاحبه لو عاد إلى القول اليوم ؟ ألا يذكرنا هذا من قرب أو من بعد ، يقول الحق جل جلاله : « ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ ، لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » ؟ ( الروم ٤١ ) .

ليت كل إنسان عاقل يحسن التدبر والتفكر فى قول الله جل جلاله : « ولقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وحملْنَاهُمْ فى البَرِّ والبَحْرِ ، ورزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وفضَّلْنَاهُمْ علَى كَثِيرٍ ممن خَلَقْنَا تَفْضيلا » ( الإسراء الآية ٧٠ ) .